مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110

العـدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020

تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

الكتابةُ بوصفها مثاليَّ اللغةِ
قراءة في هرمنيوطيقا النصّ التراثي عند هانز جورج غادامير
Writing as the Ideal of Language Reading in Hermeneutics of the Heritage Text for Hans-Georg Gadamer

بقلم د. شفق يوسف جدوع
جامعة بغداد/ كلية التربية للبنات/ قسم اللغة العربية
shafaq@coeduw.uobaghdad.edu.iq
Dr. Shafaq Yousif Jadou/ University of Baghdad / College of Education for Women / Department of Arabic Language

Abstract

The question of this research paper arises from the fundamental difference declared by modern hermeneutics between the written and oral style of the texts transmitted to us, and then between the written and the oral, as two interpretive values in the light of which the subject of the perfect interpretation is determined. Hence, Hans George Gadamer declared that every human work carries with it the impossibility of dealing with it objectively, as natural science deals with the natural phenomenon, and when it reaches us from its first moment (the moment of its production), it is covered with multiple and different layers of the processes of understanding and interpretation, each of which is consistent with its general cultural context and with the interpreter's personal structure and personal history, which work with the passage of time to be part of the structure of the work itself as it reached us. Hence, the written text represents the ideal of the language par excellence, and the subject of the ideal interpretation that liberates the heritage text from the interpretation of

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110
العـدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020
تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

the transmitters, and makes it free for the reader that has his own belonging to his history, and then his interpretation belonging to that history. Historicism does not reveal a necessary break with the past, which is assumed by our recognition of our belonging to it, and its role in our formation and our understanding, and therefore there is no need for us to leave the present towards the past, and to alienate from it in order to live in the era of the text, or to remove the past from its context in order for the present to exercise its power over it.
Key words: heritage, writing, hermeneutics

الملخص

ينهض تساؤلُ هذا البحثِ من الفارقِ الأساسي الذي أعلنته الهرمنيوطيقا الحديثةُ بين النمطِ الكتابي والشفاهي من النصوصِ المنقولةِ إلينا، ومن ثم بين الكتابيةِ والشفاهيةِ بوصفهما قيمتين تأويليتين يتحدّد في ضوئهما موضوعُ التأويلِ الأمثل، من هنا أعلن هانز جورج غادامير أن كلَّ عملٍ إنساني يحمل معه استحالةَ التعاملِ معه بموضوعيةٍ كما يتعامل العلمُ الطبيعي مع الظاهرةِ الطبيعية، وحين يصل إلينا من لحظته الأولى (لحظة إنتاجه)، فإنه يكون مغطىً بطبقاتٍ متعدّدةٍ ومختلفةٍ من عملياتِ الفهمِ والتأويلِ التي ينسجم كلٌّ منها مع سياقه الثقافي العام ومع بنية المؤّول الشخصية وتاريخِه الشخصي، التي تعمل بمرورِ الزمنِ على أن تكون جزءا من بنيةِ العملِ نفسِه كما وصل إلينا. من هنا يمثِّل النصُّ المكتوبُ مثاليَّ اللغةِ بامتياز، وموضوعَ فعلِ التأويلِ الأمثلِ الذي يحرِّر النصَّ الموروثَ من تأويلِ الذواتِ الناقلةِ، ويجعله حرّا إزاءَ الذاتِ القارئةِ التي تملك انتماءَها الخاصَّ لتاريخها، ومن ثمَّ تأويلَها المنتمي لذلك التاريخ. ولا تتجلى التاريخيةُ عن قطيعةٍ ضروريةٍ مع الماضي، يفترضها اعترافُنا بانتمائِنا له، ودورِه في تكويننا وتكوينِ فهمِنا، ومن ثمَّ فلا حاجةَ لأن نغادرَ الحاضرَ باتجاه الماضي، وأن نغتربَ عنه لنحيا عصرَ النص، أو لأن ننتزع الماضي من سياقِهِ ليمارسَ الحاضرُ سلطتَه عليه.
الكلمات المفتاحية: التراث، الكتابة، الهرمنيوطيقا

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110
العـدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020
تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

المقدمة

ينطلق البحثُ من جعل التراث بوصفه نصّا موضوعَ تساؤل، ويفترض التجربةَ التأويلية أداةً ومنهجا للإجابة، بعد اقتراح مفاهيمها ومبادئها منطلقا للفهم والرؤية، والمبدأ الذي يقترحه غادامير يقوم على إعادة فهم التراث ومن ثم النصّ التراثي بوصفه "آخر" لا بوصفه موضوعا للنظر والدراسة كما في العلوم الطبيعية، وهو ما تبيحه الهرمنيوطيقا في طورها الفلسفي، والعلاقة التي يحاول غادامير تصويرَها تتخذ هيئةَ المتحاورَين اللذَين يصغي كلٌّ منهما للآخر، لا لتذوب (الأنا) في (الأنت) من خلال مصادرتها تماما، ولا لتكون معيارا لفهمه والتسلط عليه أو امتلاكه من خلال مصادرة (آخريته)، أي مصادرة كونه (أنا) أخرىأيضا، بل بالسماح له في أن يقول لنا شيئا، وهذا يعني الاعترافَ السابق له بحق التكلم وقبول ما يقوله، وهو ما يتقوّم بعنصر الانفتاح على الآخر الذي يحمل بموجبه المؤولُ الاستعدادَ السابق للإصغاء لتجربة التراث، أي لأَنْ يضيفَ النصُّ التراثي معرفةً جديدة إلى معرفته من خلال تجربته.

تأصيل مفهوم النصّ من خلال مفهوم التراث

تتحدد بنيةُ التجربة التأويلية لدى غادامير بموضوعها ممثلاً (بالتراث)، فما ينبغي أن يكون موضوعَ التجربة هو النص التراثي، وطبيعةُ التجربة وبنيتُها الداخلية تحدّدهما طبيعةُ الموضوع، فالنص التراثي ليس موضوعا للمعرفة يجرّب ليُعرف، وليكون خاضعا للتحكم فيه، لأنّ تجربتَنا النصّ التراثي هي الدخول في حوار معه، لأنّه ليس موضوعا لنا بل هو آخر. هو لغة تتحدّث إلينا كآخر تماما، لا لكي تنقل إلينا تعبيرا عمّا كان في نفس منتجه أو مؤلفه، لكن ليقول لنا ما تقوله لغته، وينقل إلينا معناه، وبذلك تكتسب التجربةُ خصوصيتَها من كونها تجربة (آخر) وليست موضوعا.

إعادةُ تأسيس مفهوم "التراث"

يؤكد غادامير مفهوما مختلفا للتراث يتسع لأكثر من مجرد ما يأتينا من الماضي البعيد بهيئة آثار ((فمجرد ما يكتب النصّ يعد تراثا، أي يصبح أثرا)) (كحلى، صفحة 213) وحين قارب اللغةَ مقاربةً تاريخية من خلال اكتشاف الصلة الرابطة بين اللغة وتاريخ الوعي، وهي الصلة التي تبرز دورَ اللغة في اكتساب الوعي، أو اتصافه بصفة التاريخية، فإنه أسَّس بذلك الصلةَ الرابطةَ بين اللغة وتاريخية الوعي، ومن ثم اللغة والفهم التأويلي، ما يعني أنّ التراث – من حيث هو – يوجد في وسط هو اللغة. هنا يقرّر غادامير أمورا أساسية:

1) إنّ طبيعةَ التراث لغويةٌ.
2) إنّ كلَّ شيء في اللغة ينتمي للفهم.

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110
العدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020
تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

3) التراث إرث ينتقل من جيل لآخر، بعضُه لغوي وبعضُه غير لغوي كالقطع الأثرية من تماثيل وأدوات وبقايا الأبنية، واللغوي منه ما ينتقل شفاهياً، كالأمثال والحِكم والأساطير، وبعضه مكتوب في نصوص.

4) النصوص التراثية تمتلك هذا المعنى، أي إنّها أثر منتقل من جيل لآخر.

فما طبيعة هذا الانتقال؟ وما حقيقة امتلاكنا للتراث اللغوي؟

إنّنا لا نرث النصوصَ اللغوية كما نرث الأشياءَ التي تُحفَظ – بوصفها بقايا الماضي - التي بحوزتنا، فنعمل على حفظها وإرجاء التعامل معها. إنّ للنصوص اللغوية الموروثة حياةً خاصة بها، وتجمعنا بها علاقةٌ حيّة ومتجدّدة، ذلك أنّ النصَّ التراثي لا يقلّ عن أن يكون معطىً لنا. ووصف غادامير النص التراثي بأنّه (معطىً) وليس (مرجاً) يبين هذا. بمعنى أنّ النصّ التراثي ينتقل إلينا لمخاطبتنا وإخبارنا والتحاور معنا وإبلاغنا معناه الذي يملك سبباً خاصاً للحياة (لديمومة الحياة). هنا يمنح غادامير التراثَ اللغوي المكتوب أهميةً خاصة تنبع من المزية التي تتمتع بها الكتابة. فالنصّ التراثي المكتوب أكثر قدرة من الشفاهي على إبراز الطبيعة اللغوية للتراث، وعلى منح النص التراثي اللغوي سببَ حياته الدائمة. يكمن هذا كلّه ابتداءً في إمكانية فصل اللغة عن الكلام بالكتابة. هنا – تحديداً – يتّضح معنى أنّ طبيعةَ التراث لغويةٌ، وأنّ النصَّ التراثي اللغوي المكتوب أقدرُ على الاستمرار في الحياة.

إنّ النصّ التراثي المكتوب يبقى مُمتلِكاً لقدرته على التكلّم والإبلاغ والمخاطبة، أي يبقى من حيث الماهية لغة. وهنا –أيضا – تتّضح رؤيةُ غادامير لـ(الكتابة) وخصوصيتها، ومن هنا يكتسب التراثُ المكتوب أهميتَه الخاصة للتجربة التأويلية.

أما ما منحته الكتابةُ للتراث فشيء يفوق مجردَ تحقيق غاية حِفظه واستمراره، بل هي أحدثتْ تغييراً نوعياً في نمط وجود التراث وفي نمط وجود اللغة، لذلك فإن ما يأتينا من الماضي بهيئة تراث مكتوب يختلف نمطُ تراثيته عن تراثية النقوش وبقايا الأحجار مثلا، أو أي وسيلة استعملها الإنسان لحفظ أثره في الحياة وضمان استمراره، فهذه كلها تصلح أن تكون علاماتٍ أو رموزاً تحدّثنا عما جرى وعما كان، فهي (سجل ذكريات). أما المكتوب فإنه لا يؤدي وظيفةَ الاستمرارية هذه بالطريقة ذاتها؛ لأن له نمطاً ينسجم وطبيعةَ وجوده التي تمنحه استقلالا ذاتياً وانقطاعاً عن مُنتِجه، لذا فإن ما يستمر فيه وما يأتينا معه ليس منتجوه (من كتبوه أو وضعوه) بل هو ومن يتلقاه، وما يستمر في التراث هو التراث ذاته ونحن، لأنه يملك باتخاذه شكلَ المكتوب وحضوره استمراراً من نمط (المعاصرة).

إنّ (الكتابة) تجعل اللغةَ – أو النصّ – يعلو على العصر الذي أُنتج منه، ويمتلك قدرتَه الدائمة على المعاصرة، لأنّ الكتابةَ توفّر فرصةَ نفاذ الوعي الحاضر إلى الماضي بحرّية. أمّا الرواية، فإنها تقيّد عمليةَ نفاذه هذه، لأنّ الراوي سيقوم بالتوسط، أي يقوم بدور الوسيط لهذا الوعي. وهكذا يبقى

Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110

تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

النصُّ المكتوب قابلاً – باستمرار – لأن يصهر أفقَ معناه بأفق قارئه وعصر هذا القارئ. وهذه القابلية تأتي من انفصال النصّ بالكتابة عن عالَم عصره ليحيا في عالَم موضوعه ومعناه، لأنّه استقلّ وانفصل عن قائله، وعن حيثيات عصره، وصارت له القدرةُ على تكوين علاقة بعالَم قارئه الجديد، فالتراث له حضور دائم في عالَم وعصر قارئه، وهو يقيم علاقات بشكل دائم يحقق من خلالها حضورَه الخاص.

يؤكد غادامير هذه السمةَ للتراث المكتوب، ويثبت افتقارَ الآثار ذات الطبيعة غير اللغوية لها، ويعدّها تراثاً صامتاً. فالتراث لا يتكلم إلا إذا كان لغويّاً. واللغة تمكّن التراثَ من التكلم وتجعله ناطقاً لكل عصر، لأنّها هي التي تجعل حضورَه ممكناً، وهي التي توفر شروطَ التواصل وتأسيس العلاقة الدائمة بالعالَم والعصر (عالم القارئ وعصره).

إنّ ما يكمن في اللغة ويمنحها هذه القدرةَ يسميه غادامير مثالية الكلمة؛ لهذا يعقد مقارنةً بين التراث الكتابي والتراث الشفاهيبقوله: ((فليست هذه الوثيقة – بوصفها قطعة من الماضي – هي الحاملة للتراث، بل الحامل للتراث هو استمرارية الذاكرة)) (غادامير، 2007، صفحة 513)، ففي التراث الشفاهي لا تعمل (استمرارية الذاكرة) عملَها في إحياء الحاضر وإيجاد علاقته الدائمة بحاضر متلقيه، لأنّ النقلَ الشفاهي (الرواية) تتوقف معها (مثالية الكلمة) عن العمل، والرواية في نظر غادامير تُميت النصَّ، وتُحييه الكتابةُ، لأنّ الكتابةَ تعمل على حفظ معنى النص الأصلي، الذي يمتلك – بانفصاله – عن مؤلفه وكتابته القدرةَ على الانفتاح ومدّ جسور الاتصال مع كلِّ العصور اللاحقة لعصر إنتاجه. أمّا الرواية، فإنها تميت المعنى للنصّ الأصلي، وتعمل على تحويله باستمرار، ليكون ما يصلنا منه تأويلاتُه المتلاحقة التي عملت بمرور الزمن على طمسِ معالم ذلك المعنى، وإنتاجِ معنى عصرها في كلّ مرّة. مثلما أنّ الروايةَ الشفاهية لا تمثّل استمراريةَ الذاكرة تمثيلاً حقيقياً، لأنّها ستبقى تعمل باستمرار على طمسِ معالم النصّ الأصلي وإخفائه حتى يضيع تماماً بتأويلات وقراءات ناقليه، وهو ما يشبه تمامًا الطبقاتِ الجيولوجيةَ التي تبقى تتراكم بمرور الزمن حول النواة. أمّا الكتابةُ، فإنها توثّق المعنى الأصلي، وتضعه في صيغته الأصلية كما هي، ليمتلك – بعد ذلك باستمرار – قدرتَه على التواصل مع العصور، لذلك يعرّف غادامير الكتابةَ بأنّها ((اغتراب ذاتي)) (غادامير، 2007، صفحة 513). ولا يفكّ أسرَ هذا الاغتراب إلاّ فعلُ القراءة الذي يعمل الفهمُ – بموجبه – على تجاوز ما هو غريب إلى ما هو مألوف. بمعنى أنّ منحَ أي شيء معنىً لا يتم إلا باللغة، ومن ثم لا يمكن فهمُه إلا إذا قرئ بوصفه لغة. هكذا يمكن – مثلاً – قراءةَ الرموز والنقوش والعلامات المجردة، ذلك أنّ تحويلَ الأشكال والرموز – وأي شيء – إلى كلمات، يعني تحويلَها من أشياء وأشكال مبهمة غامضة (غفل) إلى أشياء ذات معنى.

من هنا يحاول غادامير إثباتَ أن النصّ التراثي هو موضوع الهرمنيوطيقا بامتياز، ومادةَ الفعل التأويلي الحقيقية، إذ تكمن مثاليةُ اللغة في الكتابة لأنّها – الكتابة – توفر شرطَ القراءة وإمكانية

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110

العـدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020

تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

الفهم، لا بوصفها رحلةً عبر الزمن إلى الماضي ومغادرة الحاضر، بل بوصفها ((الانشغال الراهن بما يقوله النصّ التراثي)) (غادامير، 2007، صفحة 514)، بناءً على أنّ النصَّ لا يقيم علاقةً بين قارئه ومؤلفه، بل بين قارئه وذاته (معناه). إنّ الكتابةَ تمنح اللغةَ بُعدَها التاريخي الذي يعلو على بُعدها التقني.

مثالي اللغة الذي يتحقّق بالكتابة

يأتي تحديدُ ملامح (مثالي اللغة) من المسافة المشخّصة بين اللغة والكلام، بين اللغة بوصفها نظامًا دلاليًا، وبين الأبعادِ التواصلية والسياقية والتعبيرية للحالة التي يدخل فيها هذا النظامُ الدلالي حيّزَ الاستعمال الحي المباشر في صورة الكلام. فالكتابةُ تمتلك القدرةَ على حمل ذلك الثابت وفصله عن متغيّرات حيّز الاستعمال التعبيرية والسياقية والتداولية. من هنا – تحديدا – يملك النصُّ بالكتابة قدرتَه على البقاء حيّا، وعلى تكرار حضوره في كلّ عصر، لتكرار ذاته، فحضور التراث في هيئة النصّ لا يعني نسخَه ذاتَه. أمّا مهمّة المؤوّل فتتمثّل في إعادة المتغيّر إلى الثابت في كلّ عصر، أي منح الدلالة اللغوية العناصرَ السياقية والتداولية والتعبيرية التي بها يكتمل فهمُها (فهم الدلالة)، وبها تؤدي لغةُ النصّ دورَها في إبلاغ معناها. هكذا تبدو معادلةُ الإنتاج والتلقّي: بإضافة المتغيّر للثابت ينتج المؤلفُ نصَّه، والنصُّ ولغة النصّ حينئذٍ سيكونان ناتجَ تفاعلِ العنصرين معا.

وبعد تحويل هذه اللغة إلى نصّ مكتوب، أي دخولها مرحلة الكتابة يبدأ العنصرُ المتغيّر بالتلاشي ليمنحَ الثابتَ فرصةَ البقاء، لتأتي عمليةُ القراءة وفعلُ التأويل بعد ذلك لتحقيق ذاتهما من خلال الفهم الذي لا يمكن أن يكون ممكناً إلاّ بإعادة إضافة المتغيّر إلى الثابت، لكنّه هذه المرة متغيّرُ المؤوّل أو القارئ الذي لا يمكن للثابت أن يُفهم إلا به، وبذلك يتم تحويلُ (الكلمة المكتوبة) إلى (الكلمة المنطوقة) مثلما يصف غادامير من خلال إضافة ((طريقة الكلام، ونغمة الصوت، وسرعته، وهكذا دواليك، وكذلك عن طريق الظروف التي قيلت فيها)) (غادامير، 2007، صفحة 516)، هكذا - وبناءً على ما تقدّم – يرفض غادامير فرضيتين:

1) معنى المؤلف وقصده.
2) القارئ الأصلي.

فبالكتابة ينسلخ النصّ من مؤلفه، ويمتلك قدرةً جديدة على أن يحيا من جديد في كلّ عصر من خلال راهن قارئه. وبذلك فإن للنصّ قرّاء دائمين، متعددين، وليس قارئا مُفترَضا واحدا، لأنّ النصَّ لا يحمل معنىً واحدا لجميع العصور. ومعنى "المعاصرة" معنىً منفتح، فكلّ قارئ لنصّ ما معاصر له، والنصّ يحمل إليه المعنى المنسجم مع عصره بوصفه حقيقةَ النص. إنّ الماضي والحاضر في عملية امتزاج مستمرة تجعل فكرةَ (القارئ الأصلي) في نظر غادامير فكرةً مثالية. وإذا كان النصُّ يتأسّس على انقطاعه عن مؤلفه ومنتجه، في اللحظة التي تتحول فيها اللغةُ من نمطِ

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110
العـدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020
تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

وجودها الشفاهي إلى المكتوب، فإن الآخرَ الذي يطالعنا في التجربة التأويلية ليس ذلك المُنتِج من وراء نصِّه، بل هو النصُّ ذاتُه، الذي يملك باكتسابه الهويةَ النصية الطابعَ الحواري الذي للآخر، والذي يمنحه دوراً إيجابيا في عملية التأويل ينأى به عن أن يكون خاضعا لذات القارئ (الأنا)، أو موضوعا لمقولاتها المعرفية أو مرآة تعكس صورتَها، فالنص ((ليس موضوعا يخضع للامتلاك والاستحواذ ولكنه كيان حي يدخل معنا في علاقة)) (عبد الحسن، 2010، صفحة 98)، إذ تمنح التجربةُ الهرمنيوطيقية الحوارَ معناه الحقيقي وماهيتَه القائمة على تجاوز الأحادية والانغلاق اللذين لا يكون معهما الحوارُ أكثرَ من مجرد حوار ذاتي يُغيَّب فيه النصُّ (الآخر) لصالح القارئ (الأنا)، أو العكس، أي يُغيَّب القارئ لصالح مُنتِج النص ومؤلفه. لذلك تتجاوز التجربةُ الهرمنيوطيقية أساليبَ وطرائق التعامل المنهجية التي تعمل على إخضاعه لعمليات من التحليل على وفق قواعد وقوانين معينة، مثلما تتجاوز اغترابَه عن قارئه بجعله قائما داخل حدود تفصله عن ذات من يقرؤه ويفهمه، ومن ثمّ تجاوز النص الدورَ المجرد الذي لوسيط بين طرفين: المؤلف ــــ القارئ، وهو النموذج التقليدي لعملية التواصل التي تبدأ بالمؤلف وتنتهي بالقارئ مرورا بالنص بوصفه واسطةً تحمل المضمونَ رسالةً (د. توفيق، 1423هـ - 2002م، الصفحات 161-162).

إلى هنا يكون غادامير قد بيّن علاقةَ التراث باللغة، والطبيعةَ اللغوية للنصّ التراثي، أو الطبيعة اللغوية للتراث، من خلال إثبات أن كلَّ ما يأتينا من الماضي لا يمكن أن يكون تراثا بالمعنى الحقيقي إلا إذا كان لغةً، أو فُهِم من خلال اللغة بتحويله إلى لغة، وهو بهذا أثبت العلاقةَ العميقة بين اللغة والتاريخ، إذ لا يمكن لشيء أن يُفهَم من دون أن يكون له معنى، ولا يمكن أن يكون لأي شيء معنىً من دون لغة. على أنّ الفهم والمعنى ليسا حدَثَين متعاقبين، بل هما حدث واحد، ومتى ما كان فهمٌ ومعنى كانت اللغة. وإذا كان الأمر يتعلق بفهم نصّ تراثي، فإن المعنى الذي يطلبه الفهمُ والكامن في لغة النصّ التراثي، يمتلك انتماءً مشتركا للنصّ والقارئ – المؤول في الآن ذاته – حيث يُفهم الماضي في ضوء الحاضر وأفق ذهنه، هذه الرابطة المستمرة يجلّيها الاتفاقُ أو المعنى المشترَك، والذي من خلاله يتحدث النصُّ القادم إلينا من الماضي عن شيء نعرفه سابقا ويقع ضمن أفق اهتماماتنا الراهنة. وهذه الصلة المتجلية في موضوع الاتفاق (المعنى المتَّفق عليه) تصادر الحاجةَ لحضور ذات المؤلف، كما تصادر الحدودَ التي يبقى فهمُ المؤول منعزلاً داخلَها، فتذيب ذاتيتَه في ما هو مشترَك بينه وبين النصّ، أو بين حاضره والماضي الذي يأتي منه النصّ، أو بين أفقه وأفق النصّ.

لغة الشعر أنموذجا للمثالي

السؤال المهم الذي يطرحه غادامير هنا هو: ما الذي يحدث في حالة النصّ الأدبي؟ ما الذي يحدث في حالة اللغة الأدبية؟ ما الذي يحدث للغة في حالة الشعر؟ تلك اللغة التي تسجّل حضورَها المميز

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110

العـدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020
تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

والخاص بفعل تعالق الشكل بالمحتوى على نحو اللافكاك؟ وتحديدا: كيف تحلل حالة اللافكاك هذه بوصفها خصيصة، وما الذي تمنحه لحضور اللغة أو لنمط حضور اللغة؟ وإزاء هذا السؤال يسجّل غادامير قصورَ اللسانيات عن تناولها هذه المسألة المهمة.

ابتداءً يؤكد اختلافُ نمط وجود اللغة وحضورها بين الكلام والكتابة، بين ما يُتكلَّم وما يُقرَأ، مغادرةَ اللغة من أفق تواصلي إلى أفق تواصلي آخر، فالقطيعةُ التي يسجلها المكتوب ليست قطيعةً تواصليةً لكنها تؤسّس لإمكانية القطيعة التواصلية، لأن اتخاذَ هيئة المكتوب من خلال التثبيت يقطع صلةَ اللغة بالمتكلم، لاغيا بذلك فاعليةَ أنماط الوسائل التواصلية المرافقة للحدث اللغوي الشفاهي، ومؤسّسا لإمكانية القطيعة التواصلية مع الآخر (السامع المُتضَمن في القارئ)، محوجا إلى أفق تواصلي آخر يتحقق بأنماط أخرى من الوسائل التواصلية، ما يعني باختصار: الحاجة للفهم، أي الحاجة إلى استعادة النصّ من حضوره المثالي إلى الواقعي، من غربته التي أحدثها انقطاعُه عن المتكلم، ومن ثم انقطاع فاعلية وسائل التواصل الحية المرافقة للمشافهة، من خلال تلقيه بموجب وسائل تواصلية جديدة. وإذا كانت وسائلُ التواصل ترتبط بالمتكلم في حالة المشافهة، فإنها بفقدها ارتباطَها به في حالة الكتابة (النصّ المكتوب)، تستبدله بـ(الشكل)، وهو ما يفسّر تعالقَ (المحتوى بالمظهر اللغوي) فيصبح الشكلُ هو الناطق الجديد بالمحتوى، والمالك الجديد لآليات التواصل في الحديث اللغوي المتحقّق بين النصّ والقارئ.

إن الحاجةَ للفهم هي ما يميز العلاقةَ بالمكتوب، ومن ثم ما يميز نمطَ حضوره اللغوي، أي ما يميز (النصّ). فالنصّ بناءً على تأسيس غادامير هذا هو ما يحوجنا إلى فهمه بسبب انقطاعه التواصلي (غربته) الحادث بانتقاله من حضوره المنطوق إلى حضوره المكتوب المفضي إلى انقطاعه عن متكلمه. هنا يقرر غادامير أمرا مهما هو أن مهمةَ التأويل ومشوارَها يبدآن مع النصّ المكتوب، ويكتسبان مسوغات وجودهما في لحظة الكتابة، أي لحظة تحوّل اللغة من وجودها الواقعي إلى المثالي، أي إلى تعاليها الذي يحوجنا إلى تجسير هذه الهوة من خلال التأويل. وإذا كان النصُّ هو ما يحوجنا إلى فهمه وتأويله، فإن التأويل هو: ما نتمكن به من استعادة النصّ من غربته واستدعائه من تعاليه إلى واقعنا. فالنصّ هو: ما يحتاج إلى الفهم ويتطلب التأويلَ وهو ما يكتسب به مفهومَه الأوسع الذي يتجاوز مفهومَه الضيق المعروف، وما يحدث في حالة اللغة الفنية بمثالها الأبرز وهو اللغة الشعرية هو: اكتساب اللغة المعنى الأسمى للنصّ، لأنها الحالةُ التي يتحقّق بها الارتباطُ بين القول(المحتوى) والشكل بوصفه آليةَ التواصل البديلة أو فاعل التواصل البديل، أي هي الحالة التي تكون فيها اللغةُ مفتقرةً للتأويل لا محتاجةً إليه فقط، وافتقارُها للتأويل يعني أن التأويلَ في حالة النصّ الشعري جزءٌ من كينونة اللغة، وجزءٌ من حضورها الواقعي، لا تتحقّق إلا به، بمعنى أن التأويلَ هو ما يمنحها إمكانيةَ حضورها، وعودتَها من تعاليها إلى واقع السامع المتضمَّن في النصّ.
وعليه فإن ((أول ما يعلمنا إياه (الأدب) هو أننا على خلاف معالجة سائر اللغة في عملية الفهم، لا

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110
العـدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020
تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

نخترق تمظهره اللغوي ثم نهمله)) (غادامير ه.، 2000، صفحة 7)، فالمحتوى شديد الصلة بالشكل إلى الحدّ الذي لا يمكن تحقّقه بدونه، لأنه (الشكل) جزءٌ من المحتوى، بل هو الشكلُ في اللغة الأدبية لذا تصعب ترجمتُه. بعكس اللغة العادية التي تنتفي الحاجةُ إليها بمجرد تحقّق مضمونها من خلال فهمه (أي تنتفي الحاجة إلى المنطوق ذاته)، ما يعني أن حضورَ المعنى في لغة الشعر مرتبطٌ بها، ولا يتحقّق له الحضورُ من دونها، وهو ما يميز نمطَ حضور اللغة المكتوبة، وما يتجلى بعمق في اللغة الفنية. فالقصيدة مثلا لا يصيبها الفقرُ جرّاء كثرة ترديدها أو حفظها أو تكرار العودة إليها بل يزيدها غنى، أي يزيد حضورَها كثافةً (فهمها).

وبذلك يشير غادامير إلى أن لغةَ الشعر تحقّق المعنى الأسمى للأدب، قبالةَ لغة الاستعمال اليومي التي ترتبط بأشكال نمطية من الخطاب، بفعل خضوعها لسلطة الاستعمال اليومي. وتحليلُ هذا له علاقةٌ مباشرة بما تقدم، إذ يؤكد غادامير امتيازَ لغة الشعر بـ(الاقتصاد التركيبي) أو التكثيف والتركيز واستغلال الفضاء ممثلا باستعمال أدنى مقدار ممكن من وسائل التركيب لإفادة المعاني، ما يعني إمكانيةً كبيرة للتكثيف الذي يمنح هذه اللغةَ جاذبيتَها الخاصة والمتمثلة في لحمتها البنيوية، على الرغم من عدم استئثار التركيب بهذه المهمة إزاء الدور الذي تؤديه دلالات الكلمات، أي (غادامير ه.، 2000، صفحة 8)، وهو ما يعدّه دليلاً على امتياز لغة الشعر على لغة النثر على الرغم من دعوة تيارات حديثة كثيرة للمماثلة بينهما، ودعوة تيارات أخرى لتسليط الضوء على جوانب أحادية من الشعر كالجانب الصوتي كما فعلت مدرسة جاكوبسون. وبذلك فإن لغة الشعر هي لغة خطاب؛ لأن الاستعمالَ اليومي للغة لا يظهر قدرتَها على إظهار خاصية الشعر، مثلما يحدث في الشعر والفلسفة مثلا، فالمضامينُ اللغوية في الاستعمال اليومي تكون في العادة مرتبطةً بسياقات ومقامات تؤسّس لها أبعادا وظيفية في إطار الحياة اليومية تكون هي الغاية من الحدث اللغوي، لذا لا تكتسب اللغةُ قيمةً ذاتيةً على هذا الصعيد لأن دورَها ينتهي بتحقيق الوظيفة أو الغرض، فهي لا تملك حضورا ذاتيا لأنها ((لا تكون ماثلة على الإطلاق)) (غادامير، تجلي الجميل ومقالات أخرى، 1997، صفحة 269).

تملك اللغةُ الفنية حضورا خاصا يجعلها قائمةً بذاتها، والسبب وراء افتقار اللغة اليومية (لغة الاستعمال اليومي) لهذا هو ارتباطُها الوثيق بالوظائف الحياتية اليومية، ما يجعل هذه اللغةَ تستمدّ قيمتَها من (سياق الحياة اليومية) وتتمتع بقيمتها في إطاره (غادامير، تجلي الجميل ومقالات أخرى، 1997، صفحة 270). هنا يمعن غادامير في تحليل ما يمنح اللغةَ الشعرية خاصيةَ الإيحاء، التي هي، تأسيسا على ما سبق، السمةُ الملازمة لها، ومن ثم فهي سمةٌ ملازمة لاغتراب اللغة المكتوبة (اغتراب النص) ووظيفة التواشج بين المحتوى والمظهر اللغوي، وبلغةٍ لسانية حديثة وظيفة تلاحم الصوت والمعنى في لغة الأدب. يحلّل غادامير لحمةَ الصوت والمعنى بتقسيمه دلالةَ الكلمة الشعرية على طبقات ثلاث:

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110
العـدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020
تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

1- طبقة المقصد وهي الأولى.
2- طبقة ثانية هي (خطاطية) اللغة، وفيها يظهر انطباقُ التشكيل اللغوي على دلالة النص، بنحو يتجلى في ما يفقده النصُّ عند الترجمة من درجة إيحائه.
3- طبقة ثالثة وهي طبقة توقع الكمال أو الطبقة التي عمل فيها عاملُ توقع الكمال المفترَض، أو عامل افتراض الكمال الموضح سابقا. وهي الطبقة التي يتحقّق فيها إدراكُ المعنى.
هذا يعني أن في لغة النصّ انتماءات ثلاثة:
الأول: انتماؤها الذي لابدّ منه إلى المواضعات اللغوية التي تجعلها جزءا سليما من بنية اللغة العامة؛ وهو المستوى الذي يُوسَمُ في الدرس اللغوي بمستوى الصحة الضروري في كلّ حدث لغوي بوصفه شرطا أساسيا.
الثاني: انتماؤها لماهية الشعر ممثلةً بالتحام الشكل بكامل خاصيته مع الدلالة.
الثالث: انتماؤها لفهم التلقي، وهي الطبقة التي تؤسّسها ما وسمها غادامير بالمساحة الحرة، التي تسم جميعَ الفنون، وهي طبقةٌ خالية إن صحّ التعبير، ينتظر إكمالُها فهمَ المتلقي الذي يعمل باستمرار على ملئها وتكوينها بتوقعاته، ومن أجل هذا جعلها غادامير ممثلةً لإدراك المعنى، إذ إن ((توقع الكمال يحدد كل إدراك للمعنى باعتباره توقعا للكمال)) (غادامير ه.، 2000، صفحة 9).

الكتابة بوصفها لحظةَ اغتراب النصّ عن مؤلفه (موت المؤلف)

تكمن أهميةُ الهرمنيوطيقا ومشروعُها في تجسير الهوة الحاصلة بفعل الكتابة بين: الكلام - الفهم، إذ تتوسط الكتابةُ هذه العلاقةَ بوصفها (هوة) فاصلة بين الاثنين ((انطلاقا من أن المكتوب هو في النهاية نوع من "الاستلاب الذاتي"، ولا يمكن التغلب على صعوبات هذا الاستلاب وإشكالاته إلا بمواجهة النصوص وفهمها فهما معبِّرا فمسار الفهم يتحدّد في مجمله ضمن دائرة المعنى التي تشكل الموروث المحدد سابقا)) (د. مهيبل، 1428هـ - 2007م، صفحة 168)، وإذ يعلن غادامير لحظةَ كتابة النصّ لحظة اغتراب له، إذ تنتقل به اللغةُ من نمط وجودها الشفاهي الحي الذي تتمثل حياتُها فيه بالتفاعل الحادث بين المتحدثين، إلى نمط آخر تستلب فيه من متكلمَها ومتلقيها في الآن ذاته فإن عمليةَ التأويل/القراءة تستهدف حالةَ الألفة التي هي غايةُ الممارسة التأويلية بوصفها مشروعَ تجاوز اغتراب الوعي إزاء النصّ، إذ، لذلك يؤكد غادامير أن ما يحتاج إلى تأويلٍ هو النصّ المكتوب فقط، بمعنى أن اللغةَ المكتوبة تملك حاجةً ذاتيةً لأن تؤول، ولحظةُ كتابتها أو تحولها إلى نصٍّ مكتوب هي اللحظة التي تولد فيها حاجتُها لأن تؤول، لأنها اللحظةُ التي تغترب فيها عن قارئها ومتلقيها بسبب اغترابها من قصد متكلمها (مؤلف النص) ((فالتأويل عندئذ هو فك رموز هذه اللغة وتحرير المعنى من فعل الكتابة وفتح عالمها على الذات)) (ناصر، 1428، 2007م.، صفحة 21).

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110
العـدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020
تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

يضع غادامير هنا أيدينا على ظاهرتين: الأولى لها علاقةٌ مباشرة بموضوع الكتابة، التي توضع في العادة إزاء فعل القراءة، مؤكدا أهميتَها الهرمنيوطيقية ويؤرخ لبداية تجليها ببداية عصر التقوية والورعية في إطار هرمنيوطيقا التبشير في القرن التاسع عشر وهي ظاهرة (القراءة الجهرية لما مكتوب)، التي يفقد فيها الكلامُ قدرتَه على تحقيق مقاصده حين يتلو القارئ ما يقرأ من دون فهم، إذ يكون مجردَ قارئ، أي مجردَ تالٍ لما هو مكتوب فيعجز حينئذ سامعوه عن فهمه؛ لأنه لا يقرأ كما لو أنه يتكلم بمعنى (القارئ السلبي) وهو مصطلح من مصطلحات نظرية القراءة. وغادامير يؤرخ بذلك لبداية مرحلة مهمة أخرى تليها تتمثل في الانتقال من القراءة جهرا إلى القراءة سرا.

يدلّ هذا على أن الكلامَ يفقد في الكتابة قيمتَه التي يحقّقها في الحالة الحية لحدوثه. أما الظاهرةُ الأخرى في اللجوء المعتاد إلى فعل الكتابة (كتابة الكلام) فهي ظاهرةٌ يضعها غادامير إزاء الظاهرة الأولى، لكي يوضح ما مفاده: إذا كان الكلامُ الحي يفقد قيمتَه التواصلية في الكتابة فإن الكتابةَ من جانبها لها وظيفةُ تثبيت القول، وتثبيت ما يقوله الكلامُ بحدّ ذاته يعني أن الكلامَ تتم استعادتُه بصورةٍ جديدة من خلال تثبيته بلغةٍ جديدة غير لغة الكلام المحكية، أي إن الكتابةَ تصبح لغةً أخرى محايثةً للقول الشفاهي، ما يعني أن اللغةَ تنتقل بالكتابة من طورٍ وجودي إلى طورٍ وجودي آخر، أي إن القولَ أو ما تقوله اللغةُ في الكلام المحكي يحضر بطريقةٍ مختلفة عن الحالة التي تقولها فيه وهي مكتوبة، ففي الكتابة حضورٌ آخر للمقول يجليه قولُ غادامير: ((لا يمكنني تجاهل التقارب الكبير بين الخطاب (discours) والمكتوب (lecrit) المتواري خلف قدرات اللغة في صيرورتها كتابة)) (غادامير، مدخل إلى أسس فن التأويل، صفحة 19)، واختلافُ نمط الحضور يدلّ على قطيعةٍ بين المكتوب والحدث اللغوي الأصلي (الشفاهي)، هي قطيعةٌ لا تؤثر في تراجع الكتابة إزاء الكلام، أي تراجع للكلام المكتوب إزاء الكلام المحكي، أي تراجع في القيمة، ولا يمكن اختزالُه بمجرد كلامٍ تحوّل إلى مكتوبٍ، ما يعني أن الكلامَ بانتقاله لصيغة الكتابة لا يفقد ماهيتَه وحقيقتَه بوصفه كلاما، لكنه يحتاج بسببٍ من تحول نمط حضوره المقولي إلى طريقةٍ أخرى في تلقيه وفهمه تناسب نمطَه وتنسجم مع طريقته في التواصل مع متلقيه.

إن ما يسم نمطَ حضور المقول في الكتابة هو قابليتُه للتثبيت، وهو تحديدا ما يُحدِث قطيعتَه الأنطولوجية مع الحدث اللغوي الأصلي (الشفاهي)، وهي إن تجلّت في مظاهر اختفاء الوسائل التواصلية المرافقة للحدث اللغوي الشفاهي، فإنها تدلّ دلالةً غيرَ مباشرة على أن مكمنَ القطيعة أعمق منها، إذ ينتمي إلى انفصاله عن القائل، وهو ما يتجلى في ماهية الكتابة التي يمكن اختصارُ نمطِ وجودها اللغوي بكونها نقلَ محتوىً قابلٍ للتثبيت، فاللغةُ في الحدث اللغوي الأصلي (الشفاهي) نمطُ حضورٍ واقعي يرتبط فيه بالقائل وبكلّ ما يصدر عنه ويرافق هذا الحدث، وإزاءَ هذا فالكتابةُ نمطُ حضورٍ مثالي متعالٍ، منحسرٍ عن قائله، مستقلٍ ذاتيا، وهو تحديدا ما يمنح الكلامَ القابليةَ على التثبيت، فهي نمطٌ تواصلي خاص، يقف إزاء (التحدث) أو الكلام بشكله الحي الذي يملك وسائلَه

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110

العدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020

تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

التواصلية الأصلية المعروفة. أما تواصليةُ المكتوب فتنتمي لنمط حضور المقول فيها، وهو ما يُختصَر في الأدبيات النقدية بـ(فن الكتابة) الذي يجعل المتكلمَ يختار طريقةً معينة وخاصةً في كلِّ مرةٍ لكتابة قصده تختلف باختلاف الظروف التي يستخدم فيها هذا المعنى، فيكتبه تارةً بصيغة مذكرة شخصية وتارةً بصيغة رسالةٍ وتارةً بطريقةِ الإعلان مثلا، أي يستبدل في كلِّ مرة جنسَ الكلام بالكتابة، وغادامير بهذا يؤسّس لمفهومٍ أنطولوجي جديدٍ للكتابة غير ذلك المتعارَف عليه في حقل النقد الأدبي، بموجبه تكون الكتابةُ في مقابل الكلام لأنها تقوم مقامَ النبر والحركات وصوت المتكلم وأنفاسه وجهره وهمسه وطريقته في الإلقاء باعتماد طرائق خاصة في تركيب الجمل، وهي بذلك (الكتابة) تملك وجودا آخر خاصا غير وجود الكلام، وهذا لا يعني أنها جنسٌ أدبي خاصّ بل وجودٌ له هويته الأنطولوجية الخاصة التي تخرج الكلامَ من ذاتية المتكلم إلى موضوعية اللغة حتى لو كان منسوبا لذات بعينها، بدليل أنه أصبح في مهبّ التأويل أي: للجميع.

ولا يعني اتصافُ الكتابة بنمطِ الحضور (المثالي) استئثارَها به دون الكلام، بل يؤشر إلى امتلاك الكلام هذه الصفة ضمنا، أي امتلاكه الضمني لقابلية التحول من نمط الحضور الواقعي إلى المثالي، أو من الشكل الشفاهي إلى الشكل الكتابي، ومن الصيغة المنطوقة المحكية إلى الصيغة التثبيتية، أي امتلاكه محتوى قابلاً للانفصال عن تجسيد فعل الكلام واستعادته من جديد مثلما يحدث في القراءة، أي قدرة قارئ النصّ قراءةً جهرية، كإلقاء الشعر مثلاً، على استعادة الهوية الحية وإعادة المحتوى من نمطه المثالي المثبت إلى نمطه المقولي الحي الشفاهي، ما يدلّ على أن محتوى النصّ حاضرٌ عندناحضورا مثاليا خالصا، ما جعل غادامير يعدّ كلَّ لغة مسارا نحو الكتابة (غادامير، مدخل إلى أسس فن التأويل، صفحة 19). وهو حضورٌ للمحتوى اللغوي تدركه، كما يصفه غادامير، الأذنُ الباطنية لصاحب اللغة، وهو ما يعيدنا إلى مقولة (السماع) الهيدغرية. هذا الحضورُ المثالي الخالص الكامن في كلِّ نصٍّ لا فكاكَ له عن تمظهره اللغوي سواء في هيئة المنطوق أو في هيئة المكتوب. وبناءً على مقولة (الحضور المثالي الخالص المتمظهر لغويا) للمحتوى يثبت غادامير تقدّمَ المكتوب على المنطوق في حالة الأدب، أي في حالة كون المظهر اللغوي (فنا لغويا)، إذ لا ينفكّ المحتوى عن تجليه اللغوي، أي عن الصيغة الفنية اللغوية التي تجلّى بها، وهو ما يؤسّس به غادامير فهمَه وتعريفَه لـ(فن الكتابة) الذي يمكن اختزالُه في عبارة (شدة ارتباط المحتوى بالمظهر اللغوي)، على نحوٍ يمتنع فيه أن يُضافَ شيء إلى النصّ، وبموجب فهم غادامير لفن الكتابة، وعلى وفق المفهوم كما يقدّمه يثبت أمرين:

الأول: تقدّم المكتوب على المنطوق. أي إن اللحظةَ التي يرتبط فيها المحتوى بالشكل اللغوي على نحو اللافكاك تسبق لحظةَ الحدث اللغوي الأصلي (الشفاهي).

الآخر: الاستقلالُ الذاتي للنصّ بفعل الاتحاد المثمر بين المحتوى والشكل على نحو الكتابة الذاتية، أي على نحوٍ يكتفي فيه النصُّ بذاته، ويقوم بذاته ابتداءً من اللحظة التي يتعالق بها المحتوى مع

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110

العـدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020

تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

الشكل. وهو أمرٌ يلتمس غادامير دليلاً عليه بمثال الشاعر الذي لا يحسن أداءَ قصيدته إلقاءً، إذ يؤدي سوءُ إلقائه إلى تعطيل عمل النصّ في إيصال محتواه وإظهار معناه للمستمع. من منظورِ هذه الرؤية ترتبط الكتابةُ وفعلُ تثبيتها بما هو قابل للتجريد، ويكون بذاته (غادامير، الحقيقة والمنهج الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، 2007، صفحة 515)، ما يرشح أسبقيتَه على فعل الكلام ذاته، الذي سيكون طارئاً عليه.

هذه المثاليةُ المجرّدة التي تسم ما يحمله المكتوبُ ترشحه لأن يكون حرّا من جهة إنتاجه وإعادة إنتاجه، بمعنى أنها تفكّ قيودَ أسره بمؤلفه، وفي الوقت ذاته لا تقيّده بقارئ معين أو مُفترض كما في نظرية القارئ الأصلي التي تفترض قارئا مثاليا لما يحمله النص؛ لأن كلا الأمرين: افتراض حضور المؤلف وقصده، وافتراض قارئٍ مثالي للنصّ، ينطلقان من منطلق واحد هو الاعتقاد بامتلاك النصّ هويةً قارّةً ثابتةً ومضمونا متحجرا على لحظة إنتاجه الأولى. لذلك يؤرخ غادامير تحولَ الفيلولوجيا إلى فن القراءة بنشوء الثقافة الأدبية، إذ تسجل هذه الثقافةُ التحوّلَ المهم من الاهتمام بجدل الكلام وضبطه إلى فهمه ووعيه. هنا يطرح غادامير سؤالَه المهم: ما معنى أن نفهم نصّا ما؟ أن نفهم نصّا ما يعني: أن نتفق على موضوع أو مضمون، أي أن تحصل حالةُ اتفاق بيننا وبين النصّ على موضوعٍ أو مضمونٍ معين. بهذا يكشف غادامير ما يوحِّد جميعَ المحاولات التأويلية.

والآن: ما معنى (الموضوع) المتفَق عليه؟ أو الاتفاق على موضوع أو مضمون الاتفاق؟الاتفاقُ يعني أن يتحدث النصّ، أو أن يكون النصّ متحدثا عن مضمون مازال يقع ضمن دائرة أو أفق انشغال المؤول واهتمامه وحاجاته وأحلامه ورغباته ومشكلاته. وبهذا ينزع غادامير من دائرته الهرمنيوطيقية الحاجة لأمرين:

الأول: ذاتية المؤلف، إذ يقرّر عدمَ الحاجة إليها مادام النصُّ يتحدث أو مازال يتحدّث عما يهمّ القارئ/ المؤول.

الآخر: يصادر على العمليةِ التأويلية وعلى فعلِ الفهم كذلك وعلى النصّ المؤول وهم (الموضوعية)، وعليه فإن أرضيةَ الفهم تتمثل في هذا (الموضوع المشترك) أو (المعنى المشترك). والموضوع المشترك أو المعنى المشترك هو الذي يؤسّس العلاقةَ الرابطةَ بين المؤول والنصّ والتي بها يتجاوز غادامير القولَ بالذاتية والموضوعية، فلا حاجةَ بعد لذاتية المؤلف، ولا تقوقع داخل ذاتية المؤول، ولا موضوعية.

الآن سوف نرى كيف تتهاوى كلٌّ من الذاتية والموضوعية على وفق مبدأ الاتفاق التأويلي، الذي بموجبه تكون المسافةُ الزمنية الفاصلة بيننا وبين النصّ شرطَ فهم وضرورةً تأويليةً لا عائق في طريقهما. كلُّ هذا يختصره غادامير في وظيفة الهرمنيوطيقيا في أنها: ((... لا تعمل على تطوير إجراء الفهم، إنما تعمل على تجلية الشروط التي يعمل فيها الفهم)) (غادامير، الحقيقة والمنهج

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110
العدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020
تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، 2007، الصفحات 404-405). بمعنى أن وظيفةَ الهرمنيوطيقيا لا تكمن في تقديم ما يعصم الفهمَ إجرائيا من الوقوع في سوء الفهم، ولا تعمل على أن يكون التأويلُ أفضلَ من خلال مساعدته على امتلاك كيفيات امتلاك المعنى، بل هي تعمل على تحليلِ بنيته وبيانِ الكيفية التي يعمل على وفقها، ومن ثم الشروط التي تجعله يتحقّق، أي الشروط التي تجعل الفهم ممكنا.

مسافة اغتراب النصّ

تعمل المسافةُ التي تفصل بين زمن القارئ وزمن إنتاج النصّ على خلق هوّات اغتراب بينهما، وحواجز اللغة الممثلة بخصائصها ومزاياها وطرائقها في الدلالة والتركيب الخاصة بعصرها، تعمل على زيادة غربة النصّ عن قارئه كلما امتدت بينهما تلك المسافة؛ بسببٍ من انتماء كلٍّ منهما لأفق تاريخي يزداد اختلافا وتغايرا بمرور الزمن، لذا تعمل الهرمنيوطيقا على تجاوز كلِّ هذا استنادا إلى عامل الزمن ذاته ممثلا بأفق التاريخ بتحويله من عامل اغتراب إلى عامل تآلف واتفاق من خلال اكتشاف الجزء الحي منه في كلٍّ منهما، ومن ثم المشترَك الحي الذي يصلح أن يكون مادةَ فهم، وبمقاربة فعلِ التأويل بفعل الترجمة، فإن فهمَ النصّ يتطلب نقلَ لغته الغريبة من أفقه إلى أفق المؤول، ومن ثم نقله من لغته إلى لغة القارئ / المؤول وعليه، ما يوهمنا بأن ما يمكن أن يكون قابلاً للفهم هو فقط ما ينتمي من نصوصٍ لأفق ثقافتنا وتقاليدنا الثقافية، والأمر هنا لا علاقةَ له بالتوتر النفسي الحادث من اصطدامنا بغربة النصّ وهوته التاريخية التي تفصلنا عنه، والمسافة على ذلك ليست مسافةً سايكولوجيةً بل هي مسافةٌ تاريخيةٌ لها علاقة بما يقوله النصّ لنا بوصفه موضوعَ فعلنا التأويلي، وما يمكن أن يكون موضوعَ انتماء لنا فيه، وهو تحديدا ما يمنح (الحوارَ) ماهيتَه الهرمنيوطيقية التي تحمي كلّا من النصّ والقارئ من أن يغيِّب أحدُهما الآخر، ومن ثم يدخل الزمن على أنه عاملٌ إيجابي في عملية الفهم، وهي ليست مسألةً مرهونةً بالصدق أو بامتياز قدرة القارئ على غيره، بل مرهونةٌ بمفهوم الزمن ذاته الذي يعني سيلاً من التجارب المتطورة بعضها من بعض، والخاضعة من ثمّ لعالَم الاتصال على مسار الزمن اللانهائي، وعليه لا تمتلك المسافةُ الزمنية تعاليَها على القارئ الذي يجعلها عاملاً سلبيا في الفهم، بل تملك انتماءَها لمسار التطور والاتصال التاريخي ذاك، ومن ثم دورها في تكوين الأحكام السابقة الملائمة دائما كي يجد القارئُ قاعدةَ انتمائه لما يقوله النصّ (غادامر، فلسفة التأويل الاصول المبادئ الأهداف، 1427هـ - 2006م.، الصفحات 52-53)، ما يُبرِز الموقعَ الهرمنيوطيقي الحقيقي في (الما بين) الذي يتوسط بين النصّ والقارئ إذ ((وحده مرور الزمن ما يمكّن لنا أن نقبض على ذلك الذي يقوله النص وشيئا فشيئا، وبالتدريج فقط، تبزغ الدلالةُ التاريخية الحقيقية للنص وتشرع في مخاطبة الحاضر)) (د. مصطفى، 2007.، صفحة 312)، بوصفها مشروعا قابلاً للإنجاز مع كلّ قارئ، إذ تتم إعادة

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110
العـدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020
تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

بناء المعنى ((انطلاقا من المسافة الزمنية بوصفها عنصرا مغذيا وبانيا للسيرورة التأويلية والتواصل المستمر مع التراث)) (بريمي، شتاء وربيع سنة 1435- 2014، صفحة 154). ومن ثم يعمل مفهومُ (العالَم) من خلال التجربة الهرمنيوطيقية، على إعادة الإنسان إلى موضعه السليم حيث انتماؤه المبنيّ على شعوره بالأُلفة وسكنه إلى ما يعنيه، ومن ثم تأسيس تجربته المعرفية على أساس هذا الانتماء، من خلال عملياتٍ مستمرةٍ من تجسيرِ الهوات وتقليصِ المسافات التي تُحدِثها الغربةُ (عدم الفهم) بين العالَم والذات، إذ تبدو في كلّ تجربةٍ تأويل رحلةُ العالَم إلى النصّ، ثم منه إلى القارئ ليستعيدَ انكشافَه فضاءً للفهم. فبعد أن تقوم الذاتُ باختزال عالَمها في لغة النصّ، ويبدأ العالَمُ من ثم رحلتَه الجديدة بوصفه عالَمَ النصّ، ويدخل مرحلةَ اغترابه، تعيد ذاتُ القارئ تجليتَه من خلال الفهم على وفق روابط انتمائها وأفقها في كلّ عصر ((وعليه فإن العالم والنص يشتركان في خاصية الثبات وكذا في خاصية المسافة، غير أن مسافة النص قابلة للاختزال والتقليص عبر نشاط التأويل، وفي جهد الاختزال يتم تحريك العالم وكذا الذات، وبهذا فإن صورة العالم تكون أقرب في النص)) (ناصر، اللغة والتأويل مقاربات في الهرمنيوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي، 1428، 2007م، صفحة 30). والقاسم المشترك هو خيطُ صلةٍ رابط بين الماضي والحاضر، لا تُنقل بموجبه ملامحُ الماضي بتفاصيلها لتمارسَ سلطتَها على الحاضر وتشكّل هويتَه، ولا تُنقل بموجبه ملامحُ الحاضر لتنسخ وجهَ الماضي وتشكّل هويتَه.

يعني القاسمُ المشترَك أن ما يقوله النصُّ يمكن أن يفهم، وخيطُ الصلة يوفر إمكانيةَ الفهم التي تنشأ من التوتر بين الألفة الحاصلة بموجبه والغربة الناشئة من المسافة الزمنية التي تفصلنا عنه. وهو ما يمثّل قطبَ (الألفة) التي تجمع بين المؤوّل والنصّ. أمّا قطب (الغربة) بينهما فتمثله (المسافة التاريخية) التي لا يدعو غادامير إلى إلغائها بل إلى الاعترافِ بها شرطا للفهم.

يقرّ غادامير بالاختلاف بين الحاضر والماضي، متجلّيين في المؤوّل والنصّ، إذ إنّ كلّا منهما ينتمي لحيثيات عصره التي لا يمكن نقلُها وتمثلها. إنّ كلّا من (إنتاج النصّ) و(تأويل النصّ) ينتمي لعصره، ولا يمكن لهما أن يتّحدا، لكن يمكن أن يلتقيا. ولحظةُ الالتقاء هذه لا يدعو غادامير لأن تكون استعادةً للحظة الإنتاج الأولى، ومن ثم لا يدعو لأن يكون تأويلُ النص إعادةً لإنتاجه من خلال إحياء حيثيات عصره والعصر الذي ينتمي إليه، بل تأويل النصّ بوصفه الإمساكَ بنقطة التقاءٍ تكون في إنتاجٍ جديدٍ للنصّ دائمٍ ومستمر، تكون للنصّ بموجبه نقطةُ التقاء جديدة في كلّ فعلٍ تأويلي، وفي كلّ محاولةٍ تأويلية.هنا يلغي غادامير شرعيةَ الموضوعية بدل الاتكاء على طلبها. حين يقرّر أنّ موضوعيةَ نصٍّ ما تعني انتماءَه لأفقٍ وسياقٍ مغلق عليه بلا نقطة التقاء بيننا وبينه، وهذا لن يحدث ((إلا إذا كان ميتا على نحو يكفي للاهتمام به تاريخياً)) (غادامير، الحقيقة والمنهج الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، 2007، صفحة 407). وفي هذه الحالة الافتراضية – فقط – يمكن الحديثُ عن الموضوعية واستبعاد أيِّ موقع يمكن أن يكون لذاتية المؤوِّل.

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110
العدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020
تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

يترتب على هذا تحريرُ دائرة الفهم من شكليتها من خلال تجلية موقع المؤوِّل في عملية الفهم، وجعلها لا منتهية. إن تمركز حركة التأويل، ومن ثمّ فعل الفهم حول (موضوع متّفق عليه) ومشترَك ناتج من نقطة التقاء معيّنة بين النصّ وما يحمله من مضمون ومعنىً مع عصر المؤوِّل يستبعد فكرةَ أو نظريةَ امتلاك النصّ لمعنىً تامّ محدّد ثابت ينبغي فهمُه والوصولُ إليه، بل هو يجلّي حقيقةَ امتلاك النصّ لمعنىً جديد ودلالةً جديدة مع كلّ عملية تأويلٍ جديدة. لذا لا تعودُ المسافةُ الزمنية عائقا بوجه الفهم، بل ضرورةً وشرطَ فهم، لأنّنا نطلّ على النصّ وعلى غربته من خلالها، ونحوّل بواسطتها هذه الغربة إلى ألفة.

إنّ الفاصلَ الزمني – أو المسافة الزمنية الفاصلة – هي ما يمكّننا من فهم نصّ انتهى عصرُه وانقضت لحظةُ إنتاجه ولا تتوافر إمكانيةُ استعادة لحظة إنتاجه الأولى، وعبور الزمن لفهمه كما فهمه قارئه في عصره.

إنّ تاريخيةَ غادامير تجلّي استحالةَ ردم الهوّة الزمانية، واستحالةَ إلغاء المسافة الزمانية، وتقدّم هذه المسافة شرطا إبستمولوجيا لكلّ فعل تأويل. ولا تناهي عملية التأويل وانفتاحُ حركة الفهم التأويلية ضمن دائرة الكلّ والجزء يأتيان من تحرك المسافة الزمانية وتجدّدها مع كلّ مؤول، ومع كلّ عصر، وهذا يحدّد دورَ المسافة الزمانية التأويلي، فهي التي تحدّد (الحالةَ) التأويلية للمؤول إزاء النصّ.

النتائج

يمكن إجمالُ ما تمخضت عنه رحلةُ البحث في النقاط الآتية:

1. قدّم غادامير مفهوما للتراث مغايرا للمفهوم التقليدي على أساس من المبدأ التأويلي القائل بأن اللغةَ تستغرق التجربةَ الإنسانية، ومن ثم الوعيَ والفهم، وبناءً عليه أكد أن كلّ ما يعدّ تراثا هو معطىً قابل لأن يكون ذا معنى، لتكون اللغةُ بذلك الوسيط الذي يكون التراث بواسطته قابلا للفهم.
2. نأى غادامير عن مقولات القارئ الأصلي أو المثالي، و استعادة زمن النصّ وفهمه كما فهمه قارئه المعاصر، وامتلاك النصوص معانٍي محدّدة تستهدف كلُّ عمليات القراءة البحثَ عنه والوصولَ إليه، باعتماده مبدأً تاريخية التجربة الإنسانية ومن ثم تاريخيةَ الوعي، هكذا لم تعد المسافةُ الفاصلة بيننا وبين النصّ التراثي القادم إلينا من عصورٍ سالفة مسافة اغتراب وعائقا أمام الفهم بل صارت شرطا للفهم.
3. يملك النصُّ التراثي على وفق ذلك سببَ ديمومته وخلوده، بانسلاخِه عن عصر منتجه وانتمائه إلى عصر قارئِه حيث يكون المشتركُ الإنساني في كلِّ عصر.

مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة
تربية وعلوم إنسانية
Issn: 2618-1312 paper print
Issn: 2618-1320 e-copy
IF: Ref.No: 2020J101
DOI: 1018756/2020J101
code ARCI-2007-1110

العـدد الخاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي للانجازات البحثية الحديثة
المنعقد الكترونياً بتاريخ: 10-18/ 8 / 2020

تاريخ النشر: تشرين الثاني 2020

المصادر

- د. سعيد توفيق، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط1، 1423هـ - 2002م.
- د.عادل مصطفى، فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر، القاهرة، دار رؤية، ط1، 2007.
- د.عمر مهيبل، من النسق إلى الذات، بيروت – لبنان، الدار العربية للعلوم – ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، 1428هـ - 2007م
- عمارة ناصر، اللغة والتأويل مقاربات في الهرمنيوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، دار الفارابي، ط1، 1428، 2007م.
- هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية،، ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم، راجعه عن الألمانية: د.جورج كتوره، طرابلس-الجماهيرية العظمى دار أويا، ط1،، 2007.
- هانز جورج غادامير، تجلي الجميل ومقالات أخرى، تحرير: روبرت برناسكوني، ترجمة ودراسة وشرح: د. سعيد توفيق، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، 1997.
- هانس جورج غادامير، فلسفة التأويل الأصول المبادئ الأهداف،، ترجمة: محمد شوقي الزين، الدار العربية للعلوم منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي، ط2، 1427هـ - 2006م.

البحوث المنشورة

- عبد الله بريمي، تاريخانية التأويل، قضايا إسلامية معاصرة، ع57- 58، شتاء وربيع سنة 1435هـ - 2014م.
- عمارة كحلى، قراءة في فينومينولوجيا التأويل عند غادامير من أفق السؤال إلى حقيقة النص، أوراق فلسفية، ع10.
- ماهر عبد الحسن، غادامير والحوار مع التراث، مجلة أوراق فلسفية، ع27 لسنة2010.
- هانس جورج غادامير، الفلسفة والأدب، ترجمة: محمد خطابي، مجلة علامات، ع12، لسنة 2000.